مظاهر التعريب في صدر الإسلام

د. علي أحمد
جامعة دمشق

يشمل هذا البحث الحِقْبة المعروفة بعصر الرسول الكريم (ص) والحِقْبة التي تلتها وهي حِقْبة الخلفاء الراشدين[1]. فقد صنفت هذه الحِقْبة بأنها الحِقْبة الزمنية التي وضعت فيها أسس وجذور حركة التعريب على مختلف الصعد والاتجاهات. وكان للرسول العربي الكريم (ص) الدور الأكبر في وضع هذه الأسس الطيبة، لأنه (ص) كان يقود الأمة باتجاه الوصول إلى أعلى المراتب في التعاون والوحدة، وفي العلم والتفوق وفي الخلق الكريم واحترام الآخر.

فهذه الموضوعات وغيرها هي التي كوَّنت ما يسمى بثقافة التعريب، التي ازدهرت ازدهاراً لافتاً في العصر الأموي والعصر العباسي الأول، وفي معظم دول العرب، التي ظهرت في المغرب الكبير والأندلس. وكان كل من أسهم في استمرار حركة التعريب في العصور الوسطى، يعتمد اعتماداً كبيراً على مسيرة النبي العربي الكريم في هذا الموضوع الحيوي المهم، لأنها مسيرة شملتها العناية الإلهية بالتأييد والتشجيع، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أكرم الرسول العربي الكريم (ص)، بأن أنزل عليه القرآن باللغة العربية لأنه من العرب، قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2]. وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى اصطفى أمة العرب من بقية الأمم، وأعطاها هذا الشرف العظيم، وأرادها أن تكون أمة خير ومحبة وعلم وتسامح، لكنها، ويالللأسف، لم تكن على قدر هذا الاصطفاء والعطاء، وربما الذي جعلها كذلك

---

[1] بدأت هذه الحقبة سنة 1هـ/622م وانتهت في سنة 41هـ/662م.

[2] سورة يوسف، الآية 12.

هو تهاونها مع غير العرب من تُرك وأوروبيين وغيرهم، فعملوا بكل قواهم على ضرب حركة التعريب في كل لحظة وجدوها مناسبة وما زالوا حتى يوم الناس هذا.

إن اختيار العناية الإلهية الرسولَ الكريم (ص) لِيكون خاتم رسله إلى البشر، اختياره من العرب، هو شرف عظيم للأمة العربية لا يوازيه شرف على الاطلاق، وهذا مما يوجب على الأمة أن تسعى على الدوام لِتَبَوُّؤِ مكانة لائقة في التعاون والوحدة والعلم والخلق الكريم، تتوازى مع هذا الشرف العظيم، الذي منحه الله لها باختيار الرسول (ص) لأن يكون من أمة العرب. ذلك لأن الرسول (ص)، كان رائداً في العلم ورائداً في السعي على طريق توحيد الأمة العربية، ورائداً في نقلها من مرحلة الضعف والهزيمة إلى مرحلة القوة والانتصار، ورائداً في الخلق الكريم، ورائداً في معاملته الإنسانية للجميع على أساس المواطنة العربية، ورائداً في كل شيء يعود على البشر بالفائدة والنفع وحصول المحبة والوئام.

إن مجيء الرسول (ص) إلى أمة العرب، هو بحد ذاته مكرمة ربانية، هدفت إلى جمع شمل العرب الذين عانوا من التدابر والافتراق والاختلاف الشيء الكثير، وجَعْلهم قوة عربية واحدة لها أهدافها واستراتيجيتها الواضحة، بما يحقق المصالح العليا للأمة على مر الزمن، دون الإضرار أو التعرض بالأذى لمصالح الأمم الأخرى، وهي ميزة إيجابية في مسيرة التعريب، التي مثلها بصدق وأمانة وإخلاص الرسول الكريم (ص). لذلك فإن ما قام به منذ أن جاء إلى الدنيا حتى آخر لحظة في حياته، كان من أجل مصلحة أمته للوصول بها إلى العروة الوثقى. ومع ذلك لابد من ذكر بعض مواقفه الخالدة على طريق حركة التعريب، التي كوَّنت محور نشاطه العام، ذلك لأنه (ص) كان يريد أن ينطلق من العرب إلى بقية شعوب العالم.

ففي عصر الرسول الكريم (ص) والخلفاء الراشدين، رسمت الخطوط الكبرى لحركة التعريب، وحددت مفاصلها الرئيسة، التي كانت متنوعة حتى شملت وجوه الحياة كافة، وذلك دون التعرض بالأذية لأية فئة من غير العرب، لأن العروبة بثوبها الإسلامي تحترم وتقدر جميع الناس، وتؤمن بقوةٍ بحقهم في الحياة والحرية والأمان والاستقرار. وقد تجلى ذلك الواقع

الإيجابي في تصرفات الرسول الكريم (ص)، وسياساته العامة واعتزازه بالعرب، وكذلك في سياسات وتصرفات الخلفاء الراشدين، وبخاصة في ميدان الحرص على جعل المنطقة في الشام ومصر والعراق، تسير على خُطا التعريب نتيجة عمليات تصفية الجيوب البيزنطية والفارسية.

فقد ولد الرسول الكريم (ص) ونشأ في بيئة عربية خالصة، كان أهلها يشعرون بمطامح الفرس والروم في أوطانهم، وهذا ما أدى إلى ظهور الروح القومية، وبخاصة في اليمن بعد أن استولى عليها الأحباش. وزاد من لهيب الشعور القومي هزيمة أبرهة في مكة المكرمة، وهذا ما أعطى اليمنيين دافعاً قوياً إلى مناوأتهم والتصدي لهم بكل الوسائل. واستطاع سيف بن ذي يزن الحِمْيري أن يلحق الهزيمة في صفوفهم، وأن يطردهم من الديار العربية[1].

وحينما انتصر العرب على الفرس في موقعة ذي قار سنة 609م، فرح الرسول الكريم (ص) فرحاً شديداً، وعبر عن ذلك بقوله: "هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم"... وكان بذلك يعبر عن أماني العرب جميعاً في التحرر والانعتاق من السيطرة الفارسية المطلقة[2].

ومع أنّ خروج الرسول الكريم (ص) من مكة المكرمة كان رُغْم إرادته، فإنها بقيت ماثلة في فكره وقلبه وداخل دائرة حبه واهتمامه، وهذا ما جعله يدعو الله مدة ثمانية عشر شهراً، كي يأمره بالصلاة باتجاهها، فاستجاب الله لرسوله في الخامس عشر من شعبان. وكان الرسول الكريم (ص) يهدف من وراء ذلك، أن يشعر أهل مكة المكرمة بأهمية مدينتهم للعرب، وأنه لا بد من عودته اليها، بعد أن أصبحت قِبلة عربية، يرتضيها ويقبل بها عرب الجزيرة العربية، باعتبار أنها كانت في الماضي عاصمة الوثنية العربية، ولا مانع أن تظل العاصمة الروحية في ظل دولة الإسلام، التي اتخذت من المدينة المنورة عاصمة لها على الصعيد السياسي،

[1] السيد عبد العزيز سالم، **دراسات في تاريخ عصر ما قبل الاسلام**، ج1، طبعة الإسكندرية، 1968، ص569 وما بعدها.

[2] المسعودي، **مروج الذهب**، ج1، ص278. ابن الأثير–الكامل، ج1، ص285.

والآن أصبحت مكة المكرمة المركز الروحي الأول للعرب المسلمين[1].

وقيل إن الرسول الكريم (ص) كان دوماً يعتز بأصله العربي الصريح، ويدعو بحرارة إلى محبة العرب، فقد ذكر أنه قال: "من أحب العرب فبحبه لي"، لأن الله سبحانه وتعالى، اختاره لأن يكون من أصل عربي، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي مبين.

هذا وقد بدأت مشاريعه العربية من الأيام الأولى لوصوله إلى المدينة المنورة، فقد وضع الصحيفة (الدستور) التي تنظم الحياة العامة في الدولة الجديدة، وكان من أهم بنود هذه الصحيفة، البند الذي يؤكد احترام الآخر، الذي تَمثل آنذاك باليهود والنصارى، وهو واقع اشتهر به العرب دون غيرهم من الأمم، لأن الرسول الكريم (ص) كان يؤسس لدولة عربية، تمتلك كل أساليب ومتطلبات الدولة القيادية، التي تستوعب جميع العناصر على اختلاف دياناتهم وأعراقهم، وهذا ما ظهر جلياً حينما استقبل (ص) بالمدينة المنورة كبيرَ أساقفة نجران، وأجرى معه محادثات مطولة، تخللتها كل الوسائل الدبلوماسية ومظاهر الاحترام للآخر، لأن الرسول الكريم (ص) كان ينطلق في ذلك من حق المواطنة العربية، التي تمتع بها كبير الأساقفة السابق الذكر، وهي حق من حقوقه[2].

لكن العملية التي كان لها أثرها الكبير في حركة التعريب، هي عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أي بين المهاجرين من مكة المكرمة وبين أهل المدينة المنورة من الأوس والخزرج. والمؤاخاة بحد ذاتها هي عملية إنسانية نبيلة في كل المقاييس، لأنها تقضي بإقامة صروح قوية من التعاون والتعاضد بين هاتين المجموعتين، أدت إلى توحيد القوى العربية التي كانت بالأمس متنافرة ومتقاتلة، وإلى جَعْل الأعداء في الداخل والخارج يحسبون حسابات جديدة، لم تكن في أذهانهم قبل عملية المؤاخاة هذه، لأن الذين تآخوا أصبحوا بفضل المؤاخاة قوة عربية كوَّنت نواة الدولة العربية، التي ستقوى مع مرور الأيام لتصبح سيدة

[1] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج2، ص274.

[2] انظر عن ذلك كتب السيرة النبوية، وكتب التاريخ العام التي اهتمت بهذه المسألة.

الموقف في الجزيرة العربية[1].

وبموجب عملية المؤاخاة والصحيفة (الدستور)، زال من الوجود في زمن الرسول (ص) نظام القبيلة، وحل محله ما يسمى اتحاد العرب في دولة واحدة موحدة كما قال الله تعال للعرب ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[2]، وهي أمة لا يعترف فيها بالعصبية والقبلية والجاهلية، لأنها تقوم على التعاون والاندماج من أجل تحقيق مصالح الأمة العليا في كل مجالات الحياة، والدفاع عنها في زمن الخطر الخارجي والداخلي.

ولكن هذه الدولة العربية الجديدة، اصطدمت بعقبات داخلية كبيرة كان على قائدها الرسول الكريم (ص)، أن يزيلها بالسرعة الممكنة لخطرها على الدولة بحكم قربها. من ذلك أنه أنزل ضربة كبيرة بالأحزاب في السنة الخامسة للهجرة، وقد تألفت هذه الأحزاب من تجمعات قبلية مناوئة لما يجري على صعيد تكوين الدولة العربية. ثم أتبع ذلك بتوجيه ضربة حاسمة للتجمعات اليهودية، التي لم تستطع أن تتعايش مع الدولة العربية الجديدة، مع أن اليهود أُعطُوا كل متطلبات الأمان والاستقرار والعيش الكريم في الصحيفة (الدستور) التي اعتمدها الرسول (ص) في دولته بالمدينة المنورة. تلا ذلك عقد صلح الحديبية مع المكيين، وذلك لمدة عشر سنوات، استطاع العرب خلالها بقيادة الرسول (ص) تقوية جبهتهم في كل مكان، وهذا ما حصل على أرض الواقع[3]، وذلك بتوجيه كتب إلى كل الدول المجاورة في الشمال والجنوب للدخول والاشتراك في عملية بناء الدولة العربية الجديدة. وكان ذلك بداية جيدة للوصول إلى النتيجة التي تجلت بعام الوفود، ثم بعد ذلك بفتح مكة المكرمة، وبغزوة تبوك. فعام الوفود هو السنة التاسعة للهجرة، وفيها جاءت وفود القبائل إلى المدينة المنورة، لتعلن الولاء للدولة

[1] ابن هشام، **السيرة** ج1، ص501. ابن حزم – جوامع السيرة، ص96.

[2] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 110.

[3] أحمد ابراهيم الشريف، **الدولة الاسلامية الأولى**، ص210 وما بعدها.

العربية الجديدة، أما فتح مكة المكرمة فقد وضع حدا للتمرد واندماج المكيين في مسيرة الدولة الجديدة بقيادة الرسول (ص). كذلك الأمر فيما يخص غزوة تبوك التي حققت دخول تبوك وما حولها في المسيرة الجديدة[1] ذلك لأن تبوك ومؤتة وما حولها في جنوب الشام، كانت الهاجس الأول للرسول الكريم (ص)، لأنه كان يحلم بتحريرها من البيزنطيين، الذين كانوا العقبة الكبيرة في سبيل انطلاقة التعريب خارج الجزيرة العربية.

وقد حرص الرسول الكريم (ص) على استمرار العرب في الحكم من بعده، وألحَّ على العرب الذين شغلوا دوراً إيجابياً في نجاح دعوته، وأشار إلى الخلافة يجب أن تكون في قريش بقوله: "الأئمة من قريش"، وذلك اعترافاً بفضل قريش في خدمة اللغة العربية، وريادتها في هذا المجال الحيوي، وأوصى القرشيين بأن يحسنوا إلى الأنصار، وأن يتجاوزوا عن المسيئين منهم، لأنهم كانوا عنده بالمرتبة الثانية بعد القرشيين، اعترافاً بجميلهم وحسن أدائهم في الأيام الصعبة من حياة الرسول (ص) الكفاحية. وقد استغل المجتمعون في سقيفة بني ساعدة قول رسول الله (ص) هذا، واعتمدوا عليه في تبرير ما قرروه في هذه السقيفة، من انتخاب أبي بكر للخلافة، واستبعاد كل المرشحين الآخرين كالإمام علي بن أبي طالب، وسعد بن عبادة زعيم الأنصار[2].

وإذا كان الرسول الكريم (ص) قد أوصى بذلك، فإن هذه الوصية على المستوى الظاهري، تتناقض مع قوله (ص) في حجة الوداع: "ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد". لكن ابن خلدون برر بقوة حق قريش في القيادة والسياسة والإدارة، وانطلق في ذلك من مفهومه المعروف بتأثير العصبية القبلية حينما تكون القبيلة قوية، وهذا ما توفر عند قبيلة قريش، التي كانت عصبة قوية كثيرة العدد، وكانت مجتمعة حول استراتيجية واضحة، ودليل ذلك أن سائر العرب، كانوا يعترفون لقريش بالقوة والسيطرة والقيادة والغلبة،

---

[1] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص82.

[2] **تاريخ الطبري**، ج3، ص 199– السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، طبعة بيروت، 1969، ص10– أحمد الشريف.

وهو أمر في غاية الأهمية، ذلك لأنه يساعد على استمرار الدولة بعد غياب الرسول الكريم (ص)، الذي كان يعرف واقع قريش معرفة ميدانية[1].

أما في العصر الراشدي فقد ظهر أمر التعريب ظهوراً أكثر ملاءمة ووضوحاً ونصاعة في عدد من الوجوه والمواقع الهامة. فمنذ المرحلة الأخيرة من حياة الرسول الكريم (ص)، بدأ الشعور القومي العربي يتنامى بسرعة لافتة، وقد تجسد ذلك باهتمام الرسول الكريم (ص) بشمال الحجاز، حيث خاض أنصاره معركة مؤتة، كما خاض بنفسه معركة تبوك، واستمر الشعور العربي بنموه القوي في أثناء الفتوحات العربية في الشام والعراق ومصر والمغرب، وكان ذلك واضحاً في العراق، حينما أصر العرب على تحريره من الفرس، الذين كانوا يُعَدُّون خطراً كبيراً على الجزيرة العربية[2].

ومما ساعد في سرعة إنجاز التحرير في العراق والشام، نجاح العرب في الحفاظ على وحدة الدولة بعد رحيل النبي (ص) إلى ربه، وذلك بالقضاء على حركة الردة، التي هددت الدولة العربية في عقر دارها. ثم ذلك الشعور العربي القوي بالانتماء إلى مدرسة العروبة، وهو شعور غلب على كل المشاعر الأخرى وتفوق عليها، ولاسيما في صفوف عرب جنوب بلاد الشام وعرب جنوب العراق، الذين انضموا إلى إخوانهم الفاتحين القادمين من جزيرة العرب، مثال ذلك بنو نمر وبنو تغلب، الذين قالوا بصراحة: "نقاتل مع قومنا"[3].

وقد تجلى ذلك في العراق بوجهٍ خاص، في معركة البويب سنة 13هـ/635م. وكذلك فعل عرب جنوب بلاد الشام، حينما استقبلوا الجيوش العربية الفاتحة بالترحاب، وعَدُّوهم مخلِّصين لهم من السيطرة البيزنطية، إضافة إلى اشتراكهم معهم في العرق واللغة والانتماء[4]، ولاسيما

---

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، ص338 وما بعدها. السيوطي– المصدر السابق، ص8 وما بعدها.

[2] أحمد الشريف، المرجع السابق، ص174.

[3] **تاريخ الطبري**، ج4، ص73.

[4] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص162. تاريخ الطبري، ج4، ص155.

مدينة دمشق التي ساهم أهلها بدخول العرب الفاتحين إليها دون مقاومة، وكذلك فعلت معظم مدن الشام الأخرى، لأن أهل هذه المدن، اقتنعوا بأن الفاتحين من إخوتهم العرب، سيخلصونهم من ظلمٍ مارسه عليهم الروم وقتاً طويلاً[1].

وقد حدث الشيء نفسه في مدينة القدس، حينما أصر البطريرك صفرونيوس ألاّ يسلم مفتاح المدينة المقدسة إلا للخليفة عمر بن الخطاب، لأنه كان يرى فيه زعيماً عربياً حريصاً على عرب القدس برمتهم، وبذلك يمكن الحفاظ على كل مقدسات المسيحيين، ولا سيما الكنيسة العظمى، وهذا ما حصل على أرض الواقع، حينما حضر عمر بن الخطاب إلى القدس، وأعطى الأمان لكل المسيحيين فيها، منطلقاً بذلك من حق المواطنة، الذي يعيش في ظله كل المواطنين عيشة هادئة مستقرة وآمنة، وهو ما عرف في التاريخ الاسلامي بالعهدة العمرية[2].

كذلك لم يكن المصريون بأقل من أهل الشام والعراق على صعيد مساعدة الفاتحين العرب، فقد انضم المصريون إلى صفوف الفاتحين منذ اللحظة الأولى لوصولهم إلى مصر، وقاتلوا الرومَ البيزنطيين. فقد كتب بنيامين بطريرك الإسكندرية، حينما سمع بدخول العرب أرض مصر إلى الأقباط سكان مصر، يأمرهم باستقبال عمرو بن العاص والانخراط في صفوف جيشه، وأن يمتثلوا لأوامره وقيادته[3].

وقد شملت حركة التعريب شؤون التنظيمات الإدارية والعسكرية، فقد أمر عمر بن الخطاب، أن تكون الجندية قاصرة على العرب دون غيرهم، ومنعهم من امتلاك الأراضي في الشام ومصر والعراق، حتى لا يتركوا عملهم الأساسي وهو عمل الجندية، ويتوجهوا إلى الاشتغال في أعمال الفلاحة والزراعة. وأمر بإقامتهم في معسكرات خاصة، حتى يعزلهم تماماً عن بقية الناس، حتى يحافظوا على أصولهم العربية الصريحة. ولكن هذه الإجراءات، لم يقدر

[1] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص167 وما بعدها. تاريخ الطبري، ج4، ص 159.

[2] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص 167 وما بعدها. تاريخ الطبري، ج4، ص 159.

[3] ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب** ص86و 106و 107.

لها أن تستمر بعد وفاة عمر بن الخطاب، فعادوا إلى امتلاك الأراضي والسكن حيث طاب لهم المقام، فضعف العنصر العربي إلى حد ما[1].

وعلى صعيد البحر، أمر عمر بن الخطاب، بأن يتولى العرب وحدهم أمر الحراسة والمراقبة في المحارس البحرية على المتوسط، ذلك لأن الثقة في غير العرب في هذه المرحلة من عمر الدولة العربية، لم تكن كبيرة أو بالأحرى لم تكن موجودة، وقد أخذ بهذه السياسة بوجهٍ خاص معاوية بن أبي سفيان، الذي عرف عنه اهتمامه اللافت بأعمال البحرية[2].

وفي ميدان السياسة أوصى عمر بن الخطاب في أواخر أيامه خيراً بالعرب، فقد قال لأبي طلحة الأنصاري: "... وأوصي الخليفة بالعرب فإنهم مادة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم فتوضع في فقرائهم". وهذه الوصية على جانب كبير من الأهمية، وبخاصة ما يتعلق منها بالعرب على أنهم مادة الإسلام وأداته، ووحدتهم تعني وحدة الإسلام وقوته واستمراره وعزته[3].

ومما يدل على محبة عمر بن الخطاب للعرب وثقته بهم، إنه أمر بإعفاء بني تغلب من المسيحيين من دفع الجزية طَوال حياتهم، وسبب ذلك أنهم يتحدرون من أصول عربية صريحة. وهذا يدل على أن المصلحة العليا للدول العربية، لن تتحقق إلا بجهود العرب تحديداً، لأن المشاعر العربية كانت تتفوق على كل المشاعر الأخرى، ذلك لأنها هي التي تحافظ على تماسك ووحدة الدولة العربية الجديدة. وقد دلت الأحداث بعد الخلافة الراشدة صحة هذا الأمر، حينما عجزت رابطة الدين عن توحيد من دخلوا إلى الاسلام من كل الأمم، فقد سعى الفرس لتحقيق مصالحهم القومية الفارسية، وكذلك فعل الأتراك، وحينما تأخر العرب عن فعل ذلك أي

---

[1] تاريخ الطبري، ج4، ص148.

[2] السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي**، طبعة ثانية، الإسكندرية، 1969، ص93.

[3] ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج3، ص381. إبراهيم سعيد وعلي أحمد، **نهاية عظماء العرب في العصور الوسطى**، طبعة دمشق، 1999، ص22 وما بعدها.

التمسك بعروبتهم وجذورهم القومية، سقطوا تحت سيطرة الآخرين من فرس وأتراك ومماليك، ولم تنفعهم روابط الدين التي تربطهم مع هؤلاء في تحقيق أدنى شيء من حقوقهم، وكانوا على الدوام في أسفل الدرك الاجتماعي، ليس لهم من الأمر سوى طاعة هؤلاء الغرباء وخدمتهم في كل ما يأمرون ويريدون.

وكان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يحرص منذ صغر سنه على أن تكون كلمة العرب هي العليا، وهذا ما جعله على الدوام يدعو إلى توحيد صفوف الأمة وتعزيز قوتها ومواطن نجاحها، وإلى ضرورة استمرارها، وذلك بأخذها بأسباب القوة والتطور عن طريق الإقدام على العلم بكافة أنواعه.

وهذا ما نوه به رسول الله (ص) بصراحة، فقال في حديث نقل عنه (ص): "أنه سأل أصحابه ذات مرة، من سيد العرب؟ فقالوا: أنت يا رسول الله، قال: بل عليٌّ سيد العرب، أما أنا فسيد ولد آدم"[1].

وقد كانت كل النشاطات التي قام بها الإمام علي بن أبي طالب، تصب في خدمة الدولة العربية. وكانت هذه النشاطات في كافة الاتجاهات، وكان لها أثرها الإيجابي الفعال، فيمكن القول إن الخدمات الجليلة والتضحيات الكبيرة التي لم تنته إلا باستشهاده، لم يستطع أحد في عصره أن يقوم بها أو يقدمها على الإطلاق. وكان ذلك منذ بدء الدعوة الاسلامية، حيث كانت سنه لا تتجاوز عشر سنوات. وتجسدت هذه الخدمات في التضحية من أجل الرسول (ص)، حيث كان لسيف الإمام علي بن أبي طالب الحظ الأوفر في إحراز النصر فيها، ولاسيما تلك المعارك الفاصلة، كبدر والخندق وفتح مكة وخيبر وغيرها. فقد استطاع بتضحيته وإيمانه ووفائه لعروبته ودينه، أن يحول جميع المواقف لمصلحة المشروع العربي، الذي تجسد في عصره بدولة العرب بالمدينة المنورة.

ولكن الذي حدث كان مأساوياً في كل المقاييس، ذلك لأن الأمة التي صنع مجدها في

[1] إبراهيم سعيد وعلي احمد، المرجع السابق، ص34.

عصر الرسول والراشدين، الإمامُ علي بن أبي طالب، لم يقابل بالاحترام والتبجيل، كما كان ينبغي أو كما تفعله الأمم الحية تجاه رجالها المشاهير، وبدلاً من ذلك قابلته الأمة بالجفاء والكراهية والحرب، وجعلت منه الخصم مدةً من الزمن. وتعد هذه الظاهرة من أسوأ الظواهر التي أخذها الأعداء على الأمة، لأنها ظاهرة سلبية لا تليق بالأمم الحية مطلقاً، ذلك لأن الامام علياً كان رجل عصره، وسيد زمانه، ونجماً ساطعاً في أمته، وبطلاً مدافعاً عن وطنه بالسيف واللسان، وعالماً بارعاً قلَّ نظيره في تاريخ الإنسانية، ورجلاً متميزاً في عروبته ووطنيته.

وعلى الرغم من المشاكل التي واكبت عثمان بن عفان في خلافته بالمدينة المنورة، فقد كانت له مواقفه الإيجابية على طريق التعريب، وكان من أحسن هذه المواقف على الإطلاق، السماح للراغبين في نشر ثقافة التعريب خارج مناطق المشرق، أن يتوجهوا إلى المغرب لنشر هذه الثقافة، فقد تحرك والي مصر عبد الله ابن سعد بن أبي سرح بمجموعة من جيشه ومعه مجموعة من الصحابة، ووصل إلى سبيطلة بالمغرب الأدنى (تونس) وهناك خاض معركة العبادلة نجح بنتيجتها في تحرير بعض المواقع من البيزنطيين، وذلك خلال المدة (27-29هـ/647- 649م)[1]. وقد أدى هذا النجاح الجزئي فيما بعد إلى الاستمرار في عملية تعريب واسعة شملت المغرب الكبير برمته.

وكان أبو بكر الصديق في شوق دائم لسماع أخبار تحركات المثنى بن حارثة في العراق، وكانت تفرحه تلك الأخبار التي تتعلق بمهاجمة الفرس في مناطق السواد وغيره، فقد كان المثنى بن حارثة يغير على التجمعات الفارسية باستمرار من منطلق تحرير كل الأرض، التي يسيطر عليها الفرس في العراق، لتصبح عربية كما كانت في الماضي. ومن كثرة ما كان أبو بكر يعول على المثنى بن حارثة في تعريب العراق مجدَّداً، كتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يحارب المرتدين، أن يتوجه إلى العراق على وجه السرعة، وقام خالد بن الوليد بتنفيذ أمر أبي بكر، الذي كان له أكبر الأثر في إشعال جذوة قتال الفرس في نفوس العراقيين،

[1] المالكي، **رياض النفوس**، ص10 وما بعدها. حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، ص 75 وما بعدها.

فانضموا إلى قوات خالد بن الوليد، التي استطاعت تحرير عدد من مناطق العراق كالحيرة والأنبار، ثم أكملت عملية تحرير العراق في عصر عمر بن الخطاب[1].

وفي زمن ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام في خلافة عمر بن الخطاب، أمر بإبدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب الخلص، ذلك لأن معاوية ومعه عمر بن الخطاب وغيرهم من المسؤولين، كانوا لا يثقون بغير العرب وبخاصة في اعتمادهم في أماكن حساسة كما في السواحل، التي كانت مع تماس مع العدو البيزنطي الذي كان يملك قوة بحرية ضاربة[2]، وقد استمرت هذه السياسة في خلافة عثمان بن عفان، الذي أعطى لمعاوية حرية واسعة في هذا المجال الهام.

هذه المواقف المتعددة الوجوه، كانت بالنسبة للمنطقة العربية بمثابة انقلاب جديد، نتج عنه توحيد العرب في دولة كبيرة هي الدولة الأموية التي انتشرت على رقعة واسعة من الأرض، ونشرت ثقافة التعريب التي ما زالت آثارها حتى اليوم في البلاد، التي لا تتبع للأرض العربية كما في الصين وآسيا الوسطى وأوربا وغيرها.

وكان من حسن حظ العرب بعد انقضاء عصر الراشدين، أن الروح العربية التي تكونت في دولة الرسول (ص) والراشدين، بقيت قوية إلى حد بعيد، ولاسيما في حقبة الفتوحات العربية في آسيا الوسطى وأوربا وغير ذلك من مناطق غير عربية. فقد كان الفاتحون يسيرون على منهج متميز في المعاملة الطيبة، وفي التضحية بلا حدود في سبيل تحقيق القضية، التي نذروا أنفسهم لها، فلم تكن تشغلهم العصبيات، ولم تكن تغريهم الأموال وزخرف الدنيا، بقدر ما كانت تشغلهم قضية نشر ثقافة التعريب، هذه الثقافة التي تؤمن بحق الناس في التخلص من الجهل، وبحقهم في العيش الكريم القائم على الاستقرار والحرية والأمان.

---

[1] الدينوري، **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، طبعة القاهرة، 1960، ص111. البلاذري، **فتوح البلدان**، ج2، ص295.

[2] عبد العزيز سالم، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي**، ص93 وما بعدها.

وفوق كل هذا فقد تسلح الفاتحون العرب بأهم أخلاق ثقافة التعريب، فقد أخذوا على عاتقهم تطبيق مبادئ احترام حقوق الإنسان في كل الميادين، وهذا ما جعل بعض المؤرخين والباحثين يقولون بصدق ووضوح، إن تاريخ الانسانية برمته لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب، الذين ابتعدوا عن ارتكاب المجازر وأعمال القتل بغير حق، وهذا ما لا نجده إلا نادراً في تاريخ الشعوب الأخرى، التي كانت مسيطرة وسائدة قبل ظهور الإسلام. وكان العرب يريدون من وراء هذا السلوك الإنساني المتفوق، تعريف شعوب المناطق المفتوحة وشعوب العالم برمته، أنهم رسل حضارة وعلم وأخلاق في المقام الأول، وهذا هو سر نجاح الفتوحات العربية في مشرق الدنيا ومغربها. فقد كان الفاتحون أعِفَّة مترفعين عن الأذية والضرر وبخاصة في لحظة النصر وامتلاك القوة والقرار، وهي أخلاق الثقافة العربية، التي بقيت سلوكاً إيجابياً ملتصقاً بالعرب أنىّ وجدوا، ولاسيما بالسمعة العربية وثقافة التعريب عامة[1].

وكذلك يمكن أن نضيف أن ثقافة التعريب، التي رسمت في عصر الرسول الكريم وعصر الراشدين، وطبقت على أكمل وجه في الحياة العربية العامة، كان من أكبر مظاهرها ما نسميه اليوم بالعلمانية، التي تجبر الحاكم أن يقف موقفاً وسطاً من كل مواطنيه بقطع النظر عن دياناتهم وعقائدهم، لأنهم يشتركون جميعاً في حق واحد هو حق المواطنة. وهو أمر في غاية الأهمية تميزت به حضارة العرب عن غيرها، حتى أصبح من أهم منجزاتها على الصعيد الإنساني والأخلاقي. والأمثلة على ذلك كثيرة في عصر الرسول (ص) وغيره. ولعل في مقدمة هذه الأمثلة ضرورة المعاملة الطيبة لغير المسلمين في ثقافة التعريب، التي لم تأت من فراغ بل استندت إلى أسس تنظيمية وتشريعية، بدأ العرب بتطبيقها منذ إعلان النبي العربي الكريم لدولته العربية بالمدينة المنورة، فقد كان مبدأ احترام غير المسلمين من أهم المبادئ، التي صِيغت منها الصحيفة التي كانت بمثابة دستور عام وضعه النبي العربي الكريم لدولته بالمدينة المنورة. فقد أكد هذا الدستور على مبدأ حرية الأديان السماوية واعتبار معتنقي هذه

[1] علي أحمد، **مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى**، طبعة دمشق، 1960، ص 374-375.

الأديان مواطنين لهم حقوق المسلمين كافة، بشرط أن يحافظوا على حقوق المواطنة ومتطلباتها مثل احترام قانون الدولة وعدم الإخلال بالنظم العامة للدولة القائمة[1]. وقد مارس النبي الكريم هذا المبدأ على أرض الواقع منذ الأيام الأولى لدعوته. فحينما اشتد الحصار والاضطهاد على أتباعه الأوائل بمكة المكرمة من قبل المعارضين المكيين، وجههم إلى ضرورة اللجوء إلى الحبشة بقوله: "ولو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده فهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"[2]. وكان النبي العربي الكريم يريد من راء ذلك عدة أمور أهمها، أنه كان يريد أن يعرّف ملك الحبشة بأن ثقافة التعريب التي بشر بها بجزيرة العرب، هي أخت الثقافة في الحبشة من حيث الهدف العام وهو خدمة الإنسانية عامة، وفي الوقت ذاته منع ملك الحبشة من التدخل بما يحصل بجزيرة العرب، وإعطاء رسالة للمعارضة المكية القرشية بأن التمادي بمعاداة حركة التعريب، التي يقودها النبي العربي الكريم ربما تجبره للجوء إلى دولة قوية لا قبل للمكيين القرشيين بمواجهتها هي الحبشة[3]. كذلك فقد حرص الرسول العربي الكريم على أن تكون أول صلاة في الإسلام على غائب، هي صلاته على النجاشي ملك الحبشة، وقد أداها (ص) مع الصحابه بالمدينة المنورة على أثر سماعه بخبر وفاة النجاشي صاحب الأيادي البيض في حماية رواد التعريب من أتباع الرسول الأوائل، وكان ذلك في سنة 9هـ/631م بعد وصوله إلى المدينة المنورة قادماً من غزوة تبوك[4].

وبالاستناد إلى هذه السياسة الطيبة التي اعتمدها الرسول الكريم، فإن معظم قادة الدول العربية في العصور الوسطى، عاملوا غير المسلمين معاملة طيبة ولائقة في كل المجالات، فقد وجد الأمويون على سبيل المثال في هذه السياسة الطيبة عاملاً مساعداً في الإبقاء على وحدة

---

[1] نبيه عاقل، **تاريخ الدولة العربي، عصر الرسول والخلفاء الراشدين** ط3 دمشق 1991، ص83.

[2] تاريخ الطبري، ج1، ص181 وما بعدها. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج2، ص4.

[3] أحمد الشريف، **الدولة الاسلامية الأولى**، ص46.

[4] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص84.

دولتهم واستمرارها[1]. وكذلك كان الحال في الدولة العباسية وبقية الدول العربية، التي أعقبتها في المشرق والمغرب على حد سواء، وهذا ما جعل غير المسلمين في طليعة المدافعين عن أوطانهم وخاصة عند مواجهة العدوان الفرنجي في بلاد الشام ومصر على مدى أكثر من مئتي سنة[2]، لأن تأثير العروبة فيهم كان غالباً على كل تأثير.

وكما نرى فإن مسيرة التعريب التي انتهجها العرب منذ عصر الرسول الكريم (ص)، جعلتهم في مقدمة شعوب الأرض في العصور الوسطى، فقد مثلوا بجدارة أمة حضارية أعطت كل شعوب العالم الكثير من المنجزات العلمية والحضارية دون مقابل، بمعنى أن أمتنا العربية انطلقت نحو ذلك من منطلق إنساني بحت، وهو مظهر إيجابي تتميز به الأمم المتحضرة، وتعمل جاهدة لترجمته حقيقة ساطعة على أرض الواقع، كما فعلت أمتنا العربية في العصور الوسطى وما زالت، إيماناً منها بضرورة العمل المتواصل من أجل سيطرة روابط التفاهم العالمي العام، على أسس راسخة ووطيدة من العدالة والاحترام المتبادل، وتعزيز أواصر الصداقة والسلام على أسس متينة من العدل والمساواة بين كل شعوب الارض، ونبذ كل أواصر التمييز القائمة على اختلاف اللون والجنس والثقافة، والتركيز على أن ما تتميز به الأمم المتحضرة من تقدم علمي وازدهار حضاري، هو نتيجة أكيدة لمنجزات حضارية اشتركت في صنعها أمم متعددة على مر الزمن، وأنه من الحق والعدل في آن واحد، أن تستفيد من منجزات الحضارة المزدهرة كل شعوب الأرض دون تمييز، وهو ما تحقق وساد في زمن ازدهار حركة التعريب في العصور الوسطى بداية من صدر الإسلام موضوع هذا البحث، لأنها حركة حضارية شكلت واحدة من المحطات المتألقة في مسيرة الحضارة الإنسانية. وهذا ما يدفعنا للتنويه بمسألة على جانب كبير من الأهمية، هي أنه من الضروري أن يبقى الاهتمام منصباً على بقاء مفهوم العروبة حياً في النفوس، وخاصة في هذه المرحلة الصعبة من حياة

[1] البلاذري، **فتوح البلدان**، ج1، ص138.

[2] ابن جبير، **الرحلة**، ص259 وما بعدها.

العرب، لأن العروبة هي الهوية الحقيقية للأمة العربية وسر وجودها ووحدتها، وبدونها سيبقى العرب على هامش الشعوب لا قيمة لهم في الزمان ولا في المكان.

فالعروبة هي التي حافظت على وجود الأمة العربية واستمرارها، على الرغم مما أصابها وحل بساحاتها من نكبات وتدمير وويلات، حيث لا يعرف تاريخ الإنسانية أمة أصابها من البلاء ما أصاب الأمة العربية، ومع ذلك فقد استمرت وها هي اليوم لا تحتاج... إلا لمن يوحدها على أساس عربي واضح الرؤى والأهداف.